الزهور

الجزء الثالث　　مايو (ايار) ١٩١١　　السنة الثانية

زهرة الشباب

١

يوم من ايام الربيع : جو السماء صافٍ ووجه الارض زاهر زاهٍ ، خرجت الى البرية وفي النفس عوامل لم ادرك سرّها المكنون ، وكنت آنئذٍ اجد لذة قلبية في الوحدة والانفراد

نظرتُ الى المغرب ، فرأيتُ الشمس تتوارى وراء بحار من الذهب والياقوت ، وستار الليل يمتدُّ شيئاً فشيئاً على وجه البسيطة وقد هبَّ نسيم لطيف ممسَّك فاحنى سنابل الحقل ، وطلع القمر على أفق المشرق يتمايل تيهاً ويتمايس عجباً بين النجوم الزواهر وهو يرسل الى الارض اشعة انواره الذهبية

وبينما انا اسير مرتشفاً هذه الانوار العلوية ، مستنشقاً هذه الروائح العنطرية ، اذ ظهرت لي في غسق المساء مخلوقة عجيبة نظرت الي وابتسمت ، وقد سترهـا ردآء انصع بياضاً من زنابق الحقل ، ولاحت على وجهها حمرة ابهى من حمرة الورد الذي يكلل رأسها . وكان شعرها

الذهبي مسترسلاً على كتفيها . ومن عينيها الدعجاوين تنبعث انوار الامل والطهارة . . . فمدّت نحوي احدى يديها واشارت اليّ بالثانيـة اشارة الحنو والانعطاف . . .

فبقيت برهةً شاخصاً اليها اقول في نفسي : « لا شك انهـا من سكان السماء » اذ لم يكن في بهائها الرائع شيء ارضي ، وكانت تحيط بها انوار سماوية فتزيد في سنائها سناء . فمددت يدي وهتفت : « ومن تكونين ؟ . . . »

فاجابتني بصوت ارقّ من نسيم الربيع واعذب من نغمة الشحرور : « يا صاح ، وضعني الاله الخلاّق في صدرك عند ولادتك ، فنموت وترعرعت معك وها انا قد بلغت اشدي مع سنتك السادسة عشرة . فحياتي حياتك وموتي موتك . انا شقيقتك واكون رفيقتك في قطع مفاوز هذه الحياة الى ان اذوي واذبل فأطرح على الحضيض ، فاتركك في نصف الطريق بعد ان نكون قطعنا معاً النصف الاول منها ، وليس هذا اليوم ببعيد يا اخي . فحياة الزهرة رمزٌ عن حياتي القصيرة . فمتى ذبلتُ تأسف عليّ حين لا يجدي التأسف . فلا ماء عينيك يحييني ولا حرارة قلبك تنعشني . . . انا لستُ غنيـة ، وكل ثروتي في الزهور التي تكلل رأسي ، لكني سأسكب عليك نعماً يحسدك عليها كبار الارض واغنياؤها . واضع على مفرق رأسك اكليلاً يغبطك به كل من نظر اليه . سأتتبع اثارك دائماً دون ان تنظرني غير انك دائماً تشعر بوجودي . . . سأنفخ من روحي الطاهرة في الطبيعـة لتروق عينك

وتبتسم لك في صباحك ومسائك . :. لكن عليك ان تقدّر هذه النعم قدرها قبل ان تفلت من يديك . وادّخر منها للنصف الثاني من الطريق حيث اكون قد غادرتك . . . »

قالت وكان كلامها ينسكب على قلبي كندى الصباح وبعد برهة استأنفت الكلام :

« قلت لك يا اخي ان حياتي قصيرة ولكنه بوسعك ان تطيلها او تقصرها . ان رجليّ نحيفتان فلا تقدني في المسالك الوعرة ، وحمرة وجهي ابهى من حمرة الورد فلا تكدرها بريح الاهواء اللافحة ، واعمل كي لا ينخزك الضمير اذا ما فقدتني . ومتى فارقتك فليبقَ ذكري محفوظاً طيّ صدرك فينعشك ساعة القنوط ويضيء نبراسه ظلام حياتك »

وحينئذٍ احنت رأسها نحوي كالملاك الحارس وشعرتُ بيدها تخطُ على جبهتي علامة سرية ففتحت يديّ فكنت كالقابض على الهواء وتوارى طيفها في غسق المساء . . .

٢

يوم من ايام الخريف : عبس وجه السماء واكفهر ، وعريت الارض من بهائها ورونقها . وكنت سائراً أجد في حزن الطبيعة صورة حزني وقد استولت عليّ الوحشة التي تستولي على القلوب عند غروب شمس النهار.

فتراءت لي مخلوقة نظرت اليّ وبكت ، وقد اتشحت برداء ممزق بالٍ ، ولاحت على خديها صفرة اشبه بصفرة الاوراق المتناثرة وقد حرقت

عينيها دموع الاسى ، وكانت محنية الظهر كزنبقة ذابلة قُطعت عنها مياه الحياة . فعرفت فيها تلك التي ظهرت لي منذ خمسة عشر عاماً ، وهتفت بصوت الرعشة : « وما تريدين الآن ؟ . . . »

فأجابتني بصوت اشد حزناً من زمهرير هواء الشتاء :

« قد ازفت ساعـة الفراق وهو فراق ابدي ، وقبل ان اتركك احببت ان اودّعك وداعي الاخير . . .

لقد انكرتني يا ناكر الجميل . قمت انا بكل وعودي لكنك لم تكترث لهـا . وضعت على رأسك اكليل الطهارة وخفرتك بحراس الايمان والامل والمحبة . . . آنست وحدتك باحلام ذهبية وشغلت مخيلتك بافكار زهرية ، جعلت السماء تبسم لك والارض تتهلل امامك . اما انت فقل لي بربك ماذا صنعت بكل هذه المواهب . . . ؟ بذّرتهـا ودستها بالاقدام . . . »

فهتفت بصوت تخنقهُ العبرات : « قد زال الغشاء عن عينيّ . ألا رحماكِ ابتي . . . ردّي اليّ الامل والمحبة فافارق الحياة ولساني يستمطر عليكِ البركات »

فاجابت :

« انت ستعيش بعد . اما انا فما قليل سأموت . انظر اليّ واعرف ما قاسيتُ من المشقات . انهكتَ قواي وهددت عزيمتي . كنتُ ارفع اليك نداء الاستغاثة واسألك الرحمة ، اما انت فلم تفهم هـذا النداء بل كنت تقودني وتدفعني الى المهالك . فمزّق ثوبي شوك الطريق وادمى

قدميّ . واحرقني حرّ الهجيرة واستنزف ينبوع الحياة فيّ . لم تعد ترطب زهرتي بماء الايمان والرجاء فذبلت زهوري وتساقطت على الارض ذاوية فنثرها الهواء في كل الانحاء . . . كل هذا وانت لا ترحم ولا تشفق . اما الآن فها قد جمد الدم في عروقي وعلا جبهتي اصفرار الموت فاتيت اودعك الوداع الابدي الاخير . . . ! »

فصرخت صرخة اليأس :

« لا . لا تموتين بل تعيشين » فلم تنبس بينت شفة ، فاردفت قائلاً « ومن تكونين ايتها المخلوقة العجيبة : . . ؟ »

فقالت :

« يا اخي انا لست الآن شيئاً . . . لكنني كنت زهرة شبابك »

قالت وتوارت عني في غيوم السماء فمددت يدي فلم اقبض الاّ على زهور سطقت من اكليلها الوردي فاخذتها فاذا هي ذابلة لا اثر فيها لطيبها السابق ولنضارتها السالفة . فذرفت دموع الندامة وهتفت : « ربي اقبل توبتي وامحُ خطيئتي واغسل ذنوبي يا ارحم الراحمين . . . ! »

الى السراية الصفراء

تدل الاحصآات الأخيرة في كل مملكة من العالم المعروف على ان عدد المجانين يزداد يوماً عن يوم وهي نظرية تخالف المألوف فان العالم كما نعتقد في تقدم الى الامام نحو المدنية والرقي العقلي ولا أدري ما